مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الاهـــــرام

التاريخ : ١٩٨١/٩/١٠

ويـــــل للمطـــــففين

بدأ الاختلاف فى الرأى منذ أن خلق أدم وحواء . واختلف ابناهما فقتل أحدهما الآخر .. ومن يومها ، أصبح الاختلاف فى الرأى مسألة طبيعية .. وعندما اكتب للقراء .. سيختلف معى البعض ، ويتفق معى البعض الآخر .. ولأن هذا الأختلاف طبيعى ، فلن انزعج .. وانما يكفينى .. أننى اكتب ـ بكل تجرد ـ مستهدفا مصلحة مصر .. والعروبة والاسلام »

حرية الرأى ، مطلب عزيز ، وجوهرى!! .. انها واحدة من أهم حقوق الانسان ، وحرياته الاساسية ، لا لأن الدساتير الوطنية فى البلاد المتحضرة قد اكدتها ، ولا لأن المعاهدات الدولية قد نصت عليها ، فذلك كله تحصيل لحاصل ، وترديد لمبدأ اساسى يعتبر لازمة من لوازم الانسانية منذ ان خلق الله أدم .

لقد تمتع اول مخلوق بشرى بهذه الحرية .. !! فعندما خلق الله أدم وحواء ، حذرهما من ان ياكلا من « هذه الشجرة » ..!! لكنهما استخدما حريتهما فى الرأى والاختيار ، وأكلا من الشجرة .. فاستحقا ماتوعدهما الله به .. وانزلهما الارض!! ..

ومنذ ان خلق الانسان ، وخلقت معه حريته فى الرأى والاختيار ، خلق مع كل هذا ، الوجه المقابل لحرية الرأى ، وهو « تحمل المسئولية عن سوء الاختيار »!!

ولقد تزوج بنو أدم فتناسلوا وتكاثروا ، فتكاثرت معهم عوامل الاختلاف فى الرأى ، بتكاثر المشكلات التى كانت تفجرها الحياة المتجددة كل يوم . وباسم حرية الرأى ، ذبحت حرية الرأى!! تارة على ايدى رؤساء القبائل .. وتارة على أيدى الملوك والاباطرة والنبلاء والأشراف!! فلقد اتت مع البشرية حقبة من الزمان ، تصور فيها البعض ان حرية الرأى لهم وحدهم .. وان الآخرين ، لا يملكون هذه الحرية ، بسبب عوامل بيئية او اقتصادية او اجتماعية . ولقد حاولت الاديان المتعاقبة تأكيد هذه الحرية ، للناس كافة .. لكن ذلك الأمر كان بعيدا عن التحقيق!! وعندما قرر الاسلام ، إعمال العقل ، والتعبير عن الرأى ، فانه يقررها عن إيمان بأنها مسألة فطرية تلتصق بطبيعة الانسان الذى كرمه الله بالعقل ، ومنحه حرية الاختيار بين الخير وبين الشر ..!! لكن الاسلام وضع لكل اختيار نتيجة ، تتفق مع طبيعته وتتجسد فيها صورته .. بحيث لا ينتج الاختيار السيىء إلا سوءا .. ولا ينتج الاختيار الطيب إلا حسنا .

وبعد وفاة النبى العظيم محمد صلى الله عليه وسلم .. بدأ الاختلاف فى الرأى يتدرج حتى أخذ صورا شبيهة بالحزبية السياسية المعروفة اليوم . بنشوء الخوارج والشيعة وغيرهما من الفرق الاسلامية ، إلى ان قام معاوية ابن ابى سفيان بأول انقلاب عسكرى فى الدولة الاسلامية ، مقررا ، انه الأحق بالخلافة .. وانتهى الانقلاب بقتل على ابن ابى طالب ، ثم بقتل الحسين .. وغيرهما!! وكان كل ذلك

باسم حرية الراى .. وبسبب الاختلاف فى الراى!!

وفى كل الثورات التاريخية العالمية المتتالية ، كانت حرية الراى هى الشعار المرفوع ، وهى الذريعة الغالبة فى معظم الاحوال .!! وعندما يتولى الثائرون من اجل حرية الراى شئون الحكم ، ينكرونها على الآخرين!! ويعودون بذلك الى عهود القبائل والملوك والأشراف والنبلاء!! فالثورة الشيوعية قامت عام ١٩١٧ ترفع لواء حرية الراى .. فاندفعت الجماهير بجنون ، لتاييد هذا الحق الطبيعى .. لكن هذه الجماهير المندفعة بجنون ، اندفعت مرة اخرى الى حتفها برصاص الثائرين!!

ولا تجد فى كل انحاء العالم غير الشيوعى من مقولة تتردد على السنة الشيوعيين ، اكثر من مقولة حرية الراى!! لكن هذه المقولة تتحول داخل العالم الشيوعى - الى « حرية راى الحزب الشيوعى الحاكم »!!

ولا تجد فى دولة شيوعية ، مجالا لحزب سياسى آخر غير الحزب الشيوعى ولا مجالا لجرائد اخرى غير الجرائد الشيوعية ولامجالا لفكر آخر غير الفكر الشيوعى!!

☐ ومن اطرف ما قراته اخيرا ، ذلك البيان الذى اصدرته « لجنة الدفاع عن الحريات » بحزب التجمع الوحدوى!! ذلك ان اسم اللجنة تنقصه - فى الحقيقة - عبارة « الخاصة بالماركسيين »!! وهنا يصبح الاسم الحقيقى لهذه اللجنة « لجنة الدفاع عن الحريات الخاصة بالماركسيين »!! ولو كشف الحزب المذكور عن الاسم الحقيقى لاحترمته وقدست صراحته ووضوحه . لكن شاءت مشيئة القائمين على امر هذا الحزب ، ان يبينوا للشعب المصرى ، انهم يدافعون عن « الحريات » باطلاق!! اى الحريات ايا كان نوعها وايا كان مكانها!! واذا صح هذا القول لكانت هذه اللجنة جديرة بالاحترام . ومن اجل ذلك فانني ارجو هذه اللجنة ان تصدر بيانات اخرى للدفاع عن حريات الافغانيين فى اختيار حكومة وطنية وحرياتهم فى طرد المستعمر السوفيتى . وان تصدر هذه اللجنة بيانا بالدفاع عن حريات الشعب البولندى ، وتحذر القوات السوفيتية من التدخل فى شئون بولندا ، فاذا صدر هذان البيانان فاننى اعلن - هنا - اننى اطلب الانضمام إلى عضوية هذه اللجنة!!

لكن المشكلة الحقيقية امام هذه اللجنة ، انها تدافع عن حريات الماركسيين فى كل محاولة يقومون بها لمناواة اى نظام وطنى .. ولا تدافع عن « حرية النظام الوطنى » فى اختيار الطريق الذى يراه وفقا للارادة الشعبية!!

☐ ومن اطرف ما قراته ايضا فى « جريدة الشعب » فى اخر عدد لها ، قول رئيس التحرير : « نحن المدافعون الحقيقيون عن الحرية والديمقراطيه وسيادة القانون »!!

وهذه المقولة ، تتضمن - بمفهوم المخالفة - ان « غيرهم » مدافعون « مزيفون » عن الحرية والديمقراطية!! والمدافع « الحقيقى » عن الحرية والديمقراطية ، لابد ان يدافع عنها لصالح المصريين جميعا ، بالدرجة الاولى ، ولصالح البشرية كلها

بالدرجة الثانية ..

وبالتجربة الفعلية ، تبينت « انهم » مدافعون « حقيقيون » فعلا ، ولكن عن الحرية والديمقراطية وسيادة القانون ، لصالح اعضاء حزب العمل فقط!!

فقد حدث أن نشرت هذه الجريدة رايا معينا ، اردت أن اتناوله بالتحليل والنقد الموضوعى الهادىء . ولما كانت هذه الجريدة ، تجأر بالشكوى من تجاهل « الصحف السماة بالقومية » لأراء حزبها وبياناته ، فقد تصورت - بكل سذاجة - أن هذه الجريدة ، سوف تضرب مثلا ديمقراطيا للصحف « السماة بالقومية » وتنشر رايا معارضا لها . بل تصورت ان هذه الجريدة ، سوف تتلقف ردى ، لا لما انطوى عليه من تحليل ، ونقد . ولكن لما يرمز إليه النشر - فى حد ذاته - من معان!!

لكن هذه الجريدة .. منذ شهر ابريل الماضى ، وحتى الآن .. تجاهلت تماما ، نشر الرد الذى ارسلته لها!! ولو كانت قد نشرته .. لقلت إنها نموذج للصحافة الحرة ، وانها قدوة .. وان اصحابها هم فعلا « المدافعون الحقيقيون عن الحرية والديمقراطية وسيادة القانون »!! لكن يبدو ، أن عبارة قد سقطت من هذه الجملة ، وهى عبارة ، فيما يختص بشئون اعضاء حزب العمل الاشتراكى »!!

☐ وقد قابلنى عضو بارز فى حزب التجمع الوحدوى ، وقال لى انه معجب بما نشرته من مقالات عن القومية العربية ، لكنه غير معجب « بالمرة » بأى شىء كتبته بعد ذلك ، لانه يؤيد النظام الحاكم!! ولست ادرى حقيقة ، هل اكتب لأنال إعجابه هو .. او اعجاب رفاقه ، أم اكتب تعبيرا عن نفسى!!؟ ثم تساءلت فى نفسى ، كيف يمكن أن ينادى هؤلاء الناس بحرية نقد النظام .. وينكرون - فى نفس الوقت - على الآخرين حرية تأييد النظام!؟ اتراهم يرون أن النظام سيىء لا يستحق التأييد!! بالتأكيد هم يرون ذلك!! لكن .. اليس من حرية الراى - للنظام - أن يعتقد - هو ايضا - انهم سيئون ، ولايستحقون التأييد !؟ انها مشكلة !! من يحكم على من !؟ ليس لأى منهما أن يدعى انه صاحب الكلمة فى هذا الموضوع .. لأن صاحب الكلمة .. هو الشعب!! لكن ما خرجت منه ، أنهم يرون ان حرية الراى لهم .. وحدهم ..!!

☐ وعندما يعتلى بعض الخطباء ، منابر المساجد او الكنائس .. ويحولون بيوت العبادة ، إلى بيوت سياسية ، تذرعا بحرية الراى ، فانهم لا يقبلون الراى الآخر ، القائل بأن هذه الدور قد انشئت لعبادة الله .. وان هناك امكنة أخرى ، هى الأحزاب يمكن أن تعبر فيها عن رايك فى سياسة الدولة . فهم يتهمون من يقول لهم ذلك بالديكتاتورية ومحاولة كبت الحريات ، مع انهم - بقولهم هذا - يكبتون حرية الآخرين فى قول آخر عكس قولهم!! هم إذن لا يتصورون الحرية ، إلا لهم .. ولا يتصورون الحرية للآخرين!! لماذا!؟ .. لأنهم يتصورون انهم اكثر علما .. واكثر فهما .. وان قولهم الحق وقول غيرهم باطل!! مع انهم يعلمون - تمام العلم - أن الله سبحانه وتعالى ، قد قال لأشرف خلقه ، فى تعامله مع المشركين « فذكر انما انت مذكر .. لست عليهم بمسيطر »!! فاذا كان الرسول العظيم ، مجرد « مذكر » لا

يملك على المشركين حق « السيطرة » و « الهيمنة » .. فكيف يتصور واعظ مسلم مثلا .. انه يملك على اخيه المسلم حق السيطرة والهيمنة والتشهير والتجريح والتعريض . ولم يفعلها الرسول مع مشرك او ملحد او كافر!! ..

وكيف ينسى الخطيب قول الله سبحانه . لرسوله الكريم . « ادع الى سبيل ربك . بالحكمة والموعظة الحسنة »!! ان الحكمة والموعظة الحسنة . هى طريق لدعوة المشركين الى سبيل الله وشرعه .. فكيف يكون التشهير والتجريح والتعريض هو طريق دعوة المسلم الى سبيل الله وشرعه؟! ثم لماذا لا يتصدق الواعظ بكلمة طيبة!!؟ الم يدر ان هذه الكلمة الطيبة . صدقة!؟ اليس لكم فى رسول الله اسوة حسنة!؟ وكيف ينسى الواعظ . إن جاءه فاسق بنبأ ان يتبين!؟ وكيف ينسى الواعظ ان غرس القيم الدينية بكل ما انطوت عليه من فوائد للانسان . أجدر واعظم نفعا من تهييج المشاعر وبلبلة الافكار!؟

صحيح ان الحكم بالشريعة الاسلامية امر واجب ومفروض .. لكن ليس بحد السيف .. ولا بالتهييج . حتى لا ياتى هذا التصرف بنتيجة عكسية ..!! ان الله - وحده - هو صاحب الثواب والعقاب .. وهو - وحده - يعلم الضال والمهتدى ..!!

وانا اريد الحكم بالشريعة الاسلامية .. لكن بكل ما علمنا ربنا ، ورسولنا ، من اساليب هادئة طيبة محببة الى النفس ..

وهل انت ايها الاخ - واستغفر الله - اعظم قدرة من نبينا العظيم .. الذى خاطبه ربه قائلا : إنك لا تهدى من احببت .. ولكن الله يهدى من يشاء »!!؟

☐ أريد ان اقول إن هناك أزمة أز لية فى فهم حرية الراى!! ان هذه الأزمة تتمثل . فى ان دعاة هذه الحرية . يريدون دائما استخلاصها لانفسهم . وانكارها على غيرهم . وهم فى سبيل ذلك يختفون تحت شعارات عامة . تجذب الجماهير . حتى ما تكاد تنساق اليها وتؤيدها . تجد نفسها اول ضحية . لدعاة الحرية!!

● إن حرية الراى الحقيقية . هى حرية الراى للجميع!!

● إن حرية الراى الحقيقية . مفهوم مطلق وعام . يتمتع به كل الناس!!

☐ وعندما تصل حرية الراى الى درجة التعارض .. فان الغلبة للأغلبية ..

● وعندما تكون الغلبة للأغلبية . فان عليها ان تظل متمسكة بحرية الراى للاقلية ..

● وعندما تمارس الاقلية حريتها فى الراى . فان التزامها الأساسى والمحدد . هو الا تحاول قهر الأغلبية ..

● وعندما تمارس الأغلبية حريتها فى الراى . فان التزامها الأساسى والمحدد . هو الا تتجاهل الاقلية ..

● لكن الأغلبية والاقلية ملتزمتان بالتزام اساسى'

- فالأغلبية تلتزم بأن تكون قدوة .

- والاقلية تلتزم بأن تكون - ايضا - قدوة ..

☐ والقدوة للاثنتين هى الحوار الذى يتسم بسمات اساسية :

أولاهما : الالتزام بحد ادنى يتفق عليه الجميع لمصلحة البلد ..

ثانيها : الالتزام باللفظ الهادىء .. والدقة فى النقد .. وطرح البديل .

والانصياع لراى الأغلبية .. والبعد عن المهاترة .. والتجريح الشخصى ..

لكن ...

اذا ظـــل كل منادٍ بـــالحرية .. يستخلصها لنفسه .. وينكرهـا على الآخرين ...

فـ وبل للمطففين .. الذين اذا اكتـالوا على الناس يســـــتوفون .. واذا كالوهم .. أو وزنوهم يخسرون .. »

محمـد اسـماعيل على